# تفسير سورة الغاشية

وهي مكية. قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة. وقال الإمام مالك، عن ضَمْرَة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾. رواه أبو داود عن القَعْنَبي، والنسائي عن قتيبة، كلاهما عن مالك، به. ورواه مسلم وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة، عن ضمرة بن سعيد، به.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد؛ لأنها تغشى الناس وتعُمّهم. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنافسيّ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ فقام يستمع ويقول: «نعم، قد جاءني». وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ أي: ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أي: قد عملت عملاً كثيراً، ونَصبت فيه، وصَليت يوم القيامة ناراً حامية. وقال الحافظ أبو بكر البرقاني: حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّي، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: مر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب يا راهب. فأشرف. قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله، ﷻ، في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾، فذاك الذي أبكاني. وقال البخاري: قال ابن عباس: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: النصارى. وعن عكرمة، والسدي: ﴿عَامِلَةٌ﴾ في الدنيا بالمعاصي ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ أي: حارة شديدة الحر. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي: قد انتهى حرّها وغليانها. قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسّدي. وقوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: شجر من نار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشِّبرقُ. قال قتادة: قريش تسميه في الربيع: الشِّبرقُ، وفي الصيف: الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريعُ نبتٌ يقال له: الشِّبرقُ، يسميه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو سم. وقال معمر، عن قتادة: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾: هو الشِّبرقُ، إذا يبس سُمّي الضريع. وقال سعيد، عن قتادة: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾: من شر الطعام وأبشعه وأخبثه. وقوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ يعني: لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي: يعرف النعيم فيها. وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾: قد رضيت عملها. وقوله: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ أي: رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾ أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو. كما قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ أي: سارحة. وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وقال ابن أبي حاتم: قُرِىء على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قُرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هُريرة قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ـ أو:

من تحت جبال ـ المسك». ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾ أي: عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السَّمْك، عليها الحور العين. قالوا: فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾ يعني: أواني الشرب معدة مُرصدة لمن أرادها من أربابها، ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾: قال ابن عباس: النمارق: الوسائد. وكذا قال عكرمة وقتادة، والضحاك، والسدي، والثوري وغيرهم. وقوله﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾، قال ابن عباس: الزرابي: البسط. وكذا قال الضحاك، وغير واحد. ومعنى مبثوثة، أي: ها هنا وها هنا لمن أراد الجلوس عليها. ونذكر ها هنا الحديث الذي رواه أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبي، عن محمد بن مهاجر، عن الضحاك المعافري، عن سليمان بن موسى: حدثني كُرَيْب أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مُشمِّر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة خضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية؟». قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها. قال: «قولوا: إن شاء الله». قال القوم: إن شاء الله. ورواه ابن ماجه عن العباس بن عثمان الدمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، به.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾؟ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها. ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت؟ أي: كيف رفعها الله، ﷻ، عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]. ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن. ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾؟ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبّه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدر خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. وهكذا أقسم «ضمام» في سؤاله على رسول الله ﷺ، كما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولُك فزعم لنا أنك تزعُم أن الله أرسلك. قال: «صدق». قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولُك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟. قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً. قال: «صدق». قال: ثم ولى فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئاً. فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخُلَنّ الجنة».

وقد رواه مسلم، عن عمرو الناقد، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، به. وعلّقه البخاري. ورواه الترمذي والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة به. ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن أنس، به بطوله، وقال في آخره: «وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما كان يحدث عن امرأة في الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها ترعى غنماً، فقال لها ابنها: يا أمه، من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلقني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: إني لأسمع لله شأناً. وألقى نفسه من الجبل فتقطع. قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا.

قال ابن دينار: كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا. في إسناده ضعف، وعبد الله بن جعفر هذا هو المديني، ضعّفه ولده الإمام علي بن المديني وغيره. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ أي: فذكر ـ يا محمد ـ الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾. وهكذا رواه مسلم في كتاب «الإيمان»، والترمذي والنسائي في كتابي «التفسير» من سننيهما، من حديث سفيان بن سعيد الثوري، به بهذه الزيادة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة، بدون ذكر هذه الآية. وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ أي: تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه. وهذه كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. ولهذا قال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾. قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث، عن سعيد بن أبي هلال، عن علي بن خالد: أن أبا أمامة الباهلي مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». تفرد بإخراجه الإمام أحمد، وعلي بن خالد هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه، ولم يزد على ما ها هنا: «روى عن أبي أمامة، وعنه سعيد بن أبي هلال». وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

**آخر تفسير سورة «الغاشية» ولله الحمد والمنة**

❋ ❋ ❋

# ( سورة الغاشية )

﴿ وهى عشرون وست آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ «١» وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ «٢» عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ «٣»

---

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ﴾ .

اعلم أن فى قوله ( هل أتاك حديث الغاشية ) مسألتين :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى الغاشية وجوهاً ( أحدها ) أنها القيامة من قوله ( يوم يغشاهم العذاب ) وإنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه ( الأول ) أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى ( أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ) ، ( والثانى ) أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين . ( والثالث ) أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد ( القول الثانى ) الغاشية هى النار أى تغشى وجوه الكفرة وأهل النار قال تعالى ( وتغشى وجوههم النار . ومن فوقهم غواش ) وهو قول سعيد ابن جبير ومقاتل ( القول الثالث ) الغاشية أهل النار يغشونها ويقعون فيها والأول أقرب ، لأن على هذا التقدير يصير المعنى أن يوم القيامة يكون بعض الناس فى الشقاوة ، وبعضهم فى السعادة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قال ( هل أتاك ) وذلك لأنه تعالى عرف رسول الله من حالها ، وحال الناس فيها ما لم يكن هو ولا قومه عارفاً به على التفصيل ، لأن العقل إن دل فإنه لا يدل إلا على أن حال العصاة مخالفة لحال المطيعين . فأما كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل إليها ، فلما عرفه الله تفصيل تلك الأحوال ، لا جرم قال ( هل أتاك حديث الغاشية ) .

أما قوله تعالى ( وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ) فاعلم أنه وصف لأهل الشقاوة ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفار ، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة ، وذلك من صفات المكلف ، لكن الخشوع يظهر فى الوجه فعلقه بالوجه لذلك ، وهو كقوله ( وجوه يومئذ ناضرة ) وقوله ( خاشعة ) أى ذليلة قد عراهم الخزى والهوان ، كما قال ( ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ) وقال ( وتراهم يعرضون

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

عليهاخاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ) وإنما يظهر الذل فى الوجه ، لأنه ضد الكبر الذى محله الرأس والدماغ . وأما العاملة فهى التى تعمل الأعمال ، ومعنى النصب الدؤوب فى العمل مع التعب

﴿ المسألة الثانية ﴾ الوجوه الممكنة فى هذه الصفات الثلاثة لا تزيد على ثلاثة ، لأنه إما أن يقال هذه الصفات بأسرها حاصلة فى الآخرة ، أو هى بأسرها حاصلة فى الدنيا ، أو بعضها فى الآخرة وبعضها فى الدنيا ( أما الوجه الأول ) وهو أنها بأسرها حاصلة فى الآخرة فهو أن الكفار يكونون يوم القيامة خاشعين أى ذليلين [illegible] لأنها فى الدنيا تكبرت عن عبادة الله ، وعاملين لأنها تعمل فى النار عملا تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال الثقيلة ، على ماقال ( فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ) وخوضها فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل بحيث ترتقى عنه تارة وتغوص فيه أخرى والتقحم فى حر جهنم والوقوف عراة حفاة جياعاً عطاشاً فى العرصات قبل دخول النار فى يوم كان مقدارة ألف سنة ، وناصبين لأنهم دائما يكونون فى ذلك العمل قال الحسن هذه الصفات كان يجب أن تكون حاصلة فى الدنيا لأجل الله تعالى ، فلما لم تكن كذلك سلطها الله عليهم يوم القيامة على سبيل العقاب ( وأما الوجه الثانى ) وهو أنها بأسرها حاصلة فى الدنيا ، فقيل هم أصحاب الصوامع من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس ، والمعنى أنها خشعت لله وعملت ونصبت فى أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب ، وذلك لأنهم لما اعتقدوا فى الله مالا يليق به فكأنهم أطاعوا ذاتاً موصوفة بالصفات التى تخيلوها فهم فى الحقيقة ماعبدوا الله وإنما عبدوا ذلك المتخيل الذى لا وجود له ، فلا جرم لاتنفعهم تلك العبادة أصلا ( وأما الوجه الثالث ) وهو أن بعض تلك الصفات حاصل فى الآخرة وبعضها فى الدنيا ففيه وجوه ( أحدها ) أنها خاشعة فى الآخرة ، مع أنها كانت فى الدنيا عاملة ناصبة ، والمعنى أنها لم تنتفع بعملها ونصبها فى الدنيا ، ولا يمتنع وصفهم ببعض أوصاف الآخرة ، ثم يذكر بعض أوصاف الدنيا ثم يعاد ذكر الآخرة ، إذا كان المعنى فى ذلك مفهوماً فكأنه تعالى قال : وجوه يوم القيامة خاشعة ، لأنها كانت فى الدنيا عاملة ناصبة فى غير طاعة الله ، فهى إذن تصلى ناراً حامية فى الآخرة ( ثانيها ) أنها خاشعة عاملة فى الدنيا ، ولكنها ناصبة فى الآخرة ، فخشوعها فى الدنيا خوفها الداعى لها إلى الإعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها ، وعملها هو صلاتها وصومها ونصبها فى الآخرة هو مقاساة العذاب على ماقال تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ) وقرىء عاملة ناصبة على الشتم ، واعلم أنه تعالى بعد أن وصفهم بهذه الصفات الثلاثة شرح بعد ذلك كيفية مكانهم ومشربهم ومطعمهم نعوذ بالله منها .

أما مكانهم فقوله تعالى ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ يقال صلى بالنار يصلى أى لزمها واحترق بها

تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

وقرىء بنصب التاء وحجته قوله ( إلا من هو صال الجحيم ) وقرأ أبو عمرو وعاصم برفع التاء من أصليته النار لقوله (ثم الجحيم صلوه) وقوله (ونصلوه جهنم) وصلوه مثل أصلوه ، وقرأ قوم تصلى بالتشديد ، وقيل المصلى عند العرب ، أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمراً كثيراً ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأما مايشوى فوق الجمر أو على المقلاة أو فى التنور ، فلا يسمى مصلى . وقوله ( حامية ) أى قد أوقدت ، وأحميت المدة الطويلة ، فلاحر يعدل حرها ، قال ابن عباس : قد حميت فهى تتلظى على أعداء الله .

وأما مشروبهم فقوله تعالى ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ الآنى الذى قد انتهى حره من الإيناء بمعنى التأخير . وفى الحديث وأن رجلا أخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم آنيت وآذيت » ونظير هذه الآية قوله ( يطوفون بينها وبين حميم آن ) قال المفسرون إن حرها بلغ إلى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت .

وأما مطعومهم فقوله تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ واختلفوا فى أن الضريع ما هو على وجوه ( أحدها ) قال الحسن : لا أدرى ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئاً ( وثانيها ) روى عن الحسن أيضاً أنه قال : الضريع بمعنى المضرع كالأليم والسميع والبديع بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع ، ومعناه إلا من طعام يحملهم على أن يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرار ( وثالثها ) أن الضريع مايبس من الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً ، فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل ، قال أبو ذويب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً عاد عنه النحائص

جمع نحوص وهى الحائل من الإبل ، وهذا قول أكثر المفسرين وأكثر أهل اللغة ( ورابعها ) قال الخليل فى كتابه ، ويقال للجلدة التى على العظم تحت اللحم هى الضريع ، فكأنه تعالى وصفه بالقلة ، فلا جرم لا يسمن ولا يغنى من جوع (وخامسها) قال أبو الجوزاء الضريع السلا ، ويقرب منه ما روى عن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك ، ثم قال أبو الجوزاء وكيف يسمن من كان يأكل الشوك ! وفى الخبر الضريع شىء يكون فى النار شبيه الشوك أمر من الصبر ، وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار ، قال القفال : والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام ، بيان نهاية ذلهم وذلك لأن القوم لما أقاموا فى تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشا جياعاً ، ثم ألقوا فى النار فرأوا فيها ماء وشيئاً من النبات ، فأحب أولئك القوم تسكين مابهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميما لايروى بل يشوى ، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغنى من جوع ، فأيسوا وانقطعت أطماعهم فى إزالة مابهم من الجوع والعطش ، كما قال ( وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ «٨» وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ «٩»

وبين أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع ، نعوذ بالله منها وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال تعالى فى سورة الحاقة ( فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ) وقال ههنا ( ليس لهم طعام إلا من ضريع ) والضريع غير الغسلين ( والجواب ) من وجهين ( الأول ) أن النار دركات فمن أهل النار من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد ، لكل باب منهم جزء مقسوم ( الثانى ) يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع ويكون ذلك كقوله : مالى طعام إلا من الشاء ، ثم يقول : ما لى طعام إلا من اللبن ، ولا تناقض لأن اللبن من الشاء .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يوجد النبت فى النار ؟ ( الجواب ) من وجهين : ( الأول ) ليس المراد أن الضريع نبت فى النار يأكلونه ، ولكنه ضرب مثله ، أى أنهم يقتاتون بما لا يشبعهم أو يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع ( الثانى ) لم لا يجوز أن يقال إن النبت يوجد فى النار؟ فانه لما لم يستبعد بقاء بدن الانسان مع كونه لحماً ودماً فى النار أبد الآباد ، فكذا ههنا وكذا القول فى سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها .

أما قوله تعالى ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ فهو مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع ، وأما المعنى ففيه ثلاثة أوجه : ( أحدها ) أن طعامهم ليس من جنس مطاعم الإنس ، وذلك لأن هذا نوع من أنواع الشوك والشوك مما ترعاه الإبل ، وهذا النوع مما ينفر عنه الإبل ، فإذن منفعتا الغذاء منتفيتان عنه ، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن فى البدن ( وثانيها ) أن يكون المعنى لا طعام لهم أصلا لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الإنس لأن الطعام ما أشبع وأسمن وهو منهما بمعزل ، كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفى الظل على التوكيد ( وثالثها ) روى أن كفار قريش قالت إن الضريع لتسمن عليه إبلنا . فنزلت ( لا يسمن ولا يغنى من جوع ) فلا يخلو إما أن يتعنتوا بذلك الكلام كذباً فيرد قولهم بنفى السمن والشبع ، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم ، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع ، قال القاضى يجب فى كل طعامهم أن لا يغنى من جوع لأن ذلك نفع ورأفة ، وذلك غير جائز فى العقاب .

قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار ، أتبعه بشرح أحوال المؤمنين ، فذكر وصف أهل الثواب أولا ، ثم وصف دار الثواب ثانياً أما وصف أهل الثواب فبأمرين ( أحدهما ) فى ظاهرهم ، وهو قوله ( ناعمة ) أى ذات بهجة وحسن ، كقوله ( تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ) أو متنعمة .

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ «١٠» فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ «١١» لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً «١٢»

( والثانى ) فى باطنهم وهو قوله تعالى ﴿ لسعيها راضية ﴾ وفيه تأويلان ( أحدهما ) أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم فى العمل لله . لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل ، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول ، ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثنى على عمل نفسه ويرضاه ( والثانى ) المراد لثواب سعيها فى الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب ، وهذا أولى إذ المراد أن الذى يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه ، وأما وصف دار الثواب ، فاعلم أن الله تعالى وصفها بأمور سبعة :

( أحدها ) قوله ﴿ فى جنة عالية ﴾ ويحتمل أن يكون المراد هو العلو فى المكان ، ويحتمل أن يكون المراد هو العلو فى الدرجة والشرف والمنقبة ، أما العلو فى المكان فذاك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض ، قال عطاء الدرجة مثل ما بين السماء والأرض .

( وثانيها ) قوله ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ وفيه مسئلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله لا تسمع ثلاث قراآت ( أحدها ) قرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتاء على الخطاب لاغية بالنصب والمخاطب بهذا الخطاب ، يحتمل أن يكون هو النبى ﷺ وأن يكون لا تسمع يا مخاطب فيها لاغية ، وهذا يفيد السماع فى الخطاب كقوله ( وإذا رأيت ثم رأيت ) وقوله ( إذا رأيتهم حسبتهم ) ويحتمل أن تكون هذه التاء عائدة إلى وجوه ، والمعنى لا تسمع الوجوه فيها لاغية ( وثانيها ) قرأ نافع بالتاء المنقوطة من فوق مرفوعة على التأنيث لاغية بالرفع ( وثالثها ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا يسمع بالياء المنقوطة من تحت مضمومة على التذكير لاغية بالرفع ، وذلك جائز لوجهين (الأول) أن هذا الضرب من المؤنث إذا تقدم فعله . وكان بين الفعل والاسم حائل حسن التذكير ، قال الشاعر :

إن امرأ غره منكن واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

( والثانى ) أن المراد باللاغية اللغو فالتأنيث على اللفظ والتذكير على المعنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لأهل اللغة فى قوله ( لاغية ) ثلاثة أوجه ( أحدها ) أنه يقال : لغا يلغو لغواً ولاغية ، فاللاغية واللغو شىء واحد ، ويتأكد هذا الوجه بقوله سبحانه ( لا يسمعون فيها لغواً ) ، ( وثانيها ) أن يكون صفة والمعنى لا يسمع كلمة لاغية ( وثالثها ) قال الأخفش لاغية أى كلمة ذات لغو كما تقول فارس ودارع لصاحب الفرس والدرع ، وأما أهل التفسير فلهم وجوه ( أحدها ) أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله تعالى وإنما نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل ، وهكذا كل مجلس فى الدنيا شريف مكرم فانه يكون مبرأ عن اللغو وكل ما كان أبلغ فى هذا كان أكثر جلالة ، هذا ما قرره القفال ( والثانى ) قال الزجاج لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

والثناء على الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم (والثالث) عن ابن عباس يريد لا تسمع فيها كذباً ولا بهتاناً ولا كفراً بالله ولا شتماً (والرابع) قال مقاتل : لا يسمع بعضهم من بعض الحلف عند شراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر وأحسن الوجوه ماقرره القفال (الخامس) قال القاضي اللغو مالا فائدة فيه ، فالله تعالى نفى عنهم ذلك ويندرج فيه ما يؤذى سامعه على طريق الأولى .

﴿الصفة الثالثة للجنة﴾ قوله تعالى : ﴿فيها عين جارية﴾ قال صاحب الكشاف يريد عيوناً فى غاية الكثرة كقوله (علمت نفس) قال القفال : فيها عين شراب جارية على وجه الأرض فى غير أخدود وتجرى لهم كما أرادوا ، قال الكلبى : لا أدرى بماء أو غيره .

﴿الصفة الرابعة﴾ قوله تعالى ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أى عالية فى الهواء وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه فى الجنة من النعيم والملك ، وقال خارجة بن مصعب بلغنا أنها بعضها فوق بعض فيرتفع ماشاء الله فاذا جاء ولى الله ليجلس عليها تطامنت له فاذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله ، والأول أولى ، وإن كان الثانى أيضاً غير ممتنع لأن ذلك بما كان أعظم فى سرور المكلف ، قال ابن عباس هى سرر ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة فى السماء .

﴿الصفة الخامسة﴾ قوله تعالى ﴿وأكواب موضوعة﴾ الأكواب الكيزان التى لا عرى لها قال قتادة فهى دون الأباريق . وفى قوله (موضوعة) وجوه (أحدها) أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرحل شيئاً فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد (وثانيها) موضوعة على حافاة العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوأة من الشرب (وثالثها) موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر ، وتلذذهم بالشراب منها (ورابعها) أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر أى هى أوساط بين الصغر والكبر كقوله (قدروها تقديراً) .

﴿الصفة السادسة﴾ قوله تعالى ﴿ونمارق مصفوفة﴾ . النمارق هى الوسائد فى قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون ، وزاد الفراء سماعا عن العرب نمرقة بكسر النون ، قال الكلبى وسائد مصفوفة بعضها إلى جانب بعض أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى .

﴿الصفة السابعة﴾ قوله تعالى ﴿وزرابى مبثوثة﴾ يعنى البسط والطنافس واحدها زربية وزربى بكسر الزاى فى قول جميع أهل اللغة ، وتفسير مبثوثة مبسوطة منشورة أو مفرقة فى المجالس

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء ووصف أحوال الفريقين وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم ، لاجرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال ( أفلا ينظرون إلى الإبل ) وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم ، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد . ( أما الأول ) فلأن الأجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص كل واحد منها بالوصف الذى لأجله امتاز على الآخر ، لابد وأن يكون لتخصيص مخصص وإيجاد قادر ، ولما رأينا هذه الأجسام مخلوقة على وجه الإتقان والإحكام علمنا أن ذلك الصانع عالم ، ولما علمنا أن ذلك الصانع لابد وأن يكون مخالفاً لخلقه فى نعت الحاجة والحدوث والإمكان علمنا أنه غنى ، فهذا يدل على أن للعالم صانعاً قادرا عالما غنياً فوجب أن يكون فى غاية الحكمة ، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجاً إلى البعض ، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه ، بل لابد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم آخر حتى ينتظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم ، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد ، ذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد فى آخر هـــذه السورة ، فإن قيل فأى مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض ، ثم لم بدأ بذكر الإبل ؟ قلنا فيه وجهان : (الأول) أن جميع المخلوقات متساوية فى هذه الدلالة وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها وأى واحد منها ذكر دون غيره كان هذا السؤال عائداً ، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير ، وأيضاً فلعل الحكمة فى ذكر هذه الأشياء التى هى غير متناسبة التنبيه على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام فى الكل على ما قال ( وإن من شيء إلا يسبح بحمده ) ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك لاجرم ذكر الله تعالى أموراً غير متناسبة بل متباعدة جداً ، تنبيهاً على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها متساوية فى الدلالة على الصانع الحكيم ، فهذا وجه حسن معقول وعليه الاعتماد ( الوجه الثانى ) وهو أن نبين ما فى كل واحد من هذه الأشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر ، ثم نبين إنه كيف يجانس بعضها بعضاً .

﴿ أما المقام الأول ﴾ فنقول الإبل له خواص منها أنه تعالى جعل الحيوان الذى يقتنى أصنافاً شتى فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الإنسان فى الأسفار وتارة

وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ «١٩» وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ «٢٠» وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ «٢١»

لينقل أمتعة الانسان من بلد إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة فى الإبل ، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله ( أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ) ، قال ( والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ) وإن شيئاً من سائر الحيوانات لايجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب ( وثانيها ) أنه فى كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذى لايوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير ، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير ، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة مالا يمكن قطعه بحيوان آخر ، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزىء حيوان آخر ، وإن جعلت حمولة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التى لايستقل بها سواها ، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعاً فى قلب العرب ولذلك فانهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلا ، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة فى إعطاء الشاعر الذى جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير ، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره ، ولهذا قال تعالى ( ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ) ومنها أنى كنت مع جماعة فى مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملا وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت فى خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذين عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فان ذلك الحيوان اهتدى إليه ، ومنها انها مع كونها فى غاية القوة على العمل مباينة لغيرها فى الانقياد والطاعة لأضعف الحوانات كالصبى الصغير ، ومباينه لغيرها أيضاً فى أنها يحمل عليها وهى باركة ثم تقوم ، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر فى خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل فى صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها ، فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل فى خلقتها .

ثم قال تعالى ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ أى رفعاً بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد .

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ نصباً ثابتاً فهى راسخة لاتميل ولا تزول .

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة ، فهى مهاد المتقلب عليها ، ومن

الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف ، لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح ، وقرأ على عليه السلام كيف خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير ، والتقدير فعلتها ، فحذف المفعول .

﴿ المقام الثانى ﴾ فى بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب . قال صاحب الكشاف : ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك . وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل فى كثير من أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز ، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة . إما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور ، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين (الأول) أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيراً ، لأن بلدتهم بلدة خالية عن الزرع ، وكانت أسفارهم فى أكثر الأمر على الإبل ، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها فى المهامه والقفار مستوحشين منفردين عن الناس ، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر فى الأشياء ، لأنه ليس معه من يحادثه ، وليس هناك شىء يشغل به سمعه وبصره ، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة ، فإذا فكر فى ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذى ركبه ، فيرى منظراً عجيباً ، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء ، وإذا نظر يميناً وشمالا لم ير غير الجبال ، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض ، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ، ثم إنه فى وقت الخلوة فى المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء ، فلا جرم جمع الله بينها فى هذه الآية (الوجه الثانى) أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين : منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معاً ، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب ، وليس للشهوة فيها نصيب .

﴿ والقسم الأول ﴾ كالإنسان الحسن الوجه ، والبساتين النزهة ، والذهب والفضة وغيرها ، فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم ، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس ، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها ، لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعاً عن إتمام النظر والفكر وسبباً لاستغراق النفس فى محبته .

﴿ أما القسم الثانى ﴾ فهو كالحيوانات التى لا يكون فى صورتها حسن ، ولكن يكون فى تركيبها حكم بالغة وهى مثل الإبل وغيرها ، إلا أن ذكر الإبل ههنا أولى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض ، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة ، وليس فيها ما يكون نصيباً للشهوة ، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة لا جرم أمر الله بالتدبر فيها فهذا ما يحضرنا فى هذا الموضع وبالله التوفيق .

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾

---

قوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد ، قال لرسوله ﷺ ( فذكر إنما أنت مذكر ( وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك ، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه ، وبيان أنه إنما بعث لذلك دون غيره ، فلهذا قال ( إنما أنت مذكر ) .

قوله تعالى : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ قال صاحب الكشاف ( بمسيطر ) بمسلط ، كقوله ( وما أنت عليهم بجبار ) وقوله ( أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) وقيل هو فى لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم ، والمعنى أنك ما أمرت إلا بالتذكير ، فأما أن تكون مسلطاً عليهم حتى تقتلهم ، أو تكرههم على الإيمان فلا ، قالوا ثم نسختها آية القتال ، هذا قول جميع المفسرين ، والكلام فى تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله ( أم هم المسيطرون ) .

قوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية قولان ( أحدهما ) أنه استثناء حقيقى ، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء ، استثناء عماذا ؟ فيه احتمالان ( الأول ) أن يقال التقدير : فذكر إلا من تولى وكفر ( والثانى ) أنه استثناء عن الضمير فى ( عليهم ) والتقدير : لست عليهم بمسيطر إلا من تولى . واعترض عليه بأنه عليه السلام ماكان حينئذ مأموراً بالقتال (وجوابه) لعل المراد أنك لا تصير مسلطاً إلا على من تولى ( القول الثانى ) أنه استثناء منقطع عما قبله ، كما تقول فى الكلام : قعدنا نتذكر العلم ، إلا أن كثيراً من الناس لا يرغب ، فكذا ههنا التقدير لست بمسئول عليهم ، لكن من تولى منهم فإن الله يعذبه العذاب الأكبر الذى هو عذاب جهنم ، قالوا وعلامة كون الاستثناء منقطعاً حسن دخول أن فى المستثنى ، وإذا كان الاستثناء متصلا لم يحسن ذلك ، ألا ترى أنك تقول عندى مائتان إلا درهما ، فلا تدخل عليه أن ، وههنا يحسن أن ، فإنك تقول إلا أن من تولى وكفر فيعذبه الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء ( ألا من تولى ) على التنبيه ، وفى قراءة ابن مسعود ( فإنه يعذبه ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه ( أحدها ) أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر ، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه ، ولهذا قال تعالى ( ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ) ، ( وثانيها ) هو العذاب فى الدرك الأسفل فى النار (وثالثها) أنه قد

إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

يكون العذاب الأكبر حاصلا فى الدنيا ، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال ، القول الأول أولى وأقرب .

قوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ وهذا كأنه من صلة قوله ( فيعذبه الله العذاب الأكبر ) وإنما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبي ﷺ حزنه على كفرهم ، فقال : طب نفساً عليهم ، وإن عاندوا وكذبوا وجحدوا فإن مرجعهم إلى الموعد الذى وعدنا ، فإن علينا حسابهم ( وفيه سؤال ) وهو أن محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم وذلك حق الله تعالى ، ولا يجب على المالك أن يستوفى حق نفسه ( والجواب ) أن ذلك واجب عليه إما بحكم الوعد الذى يمتنع وقوع الخلف فيه ، وإما فى الحكمة ، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم وتعالى الله عنه ، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة وههنا مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو جعفر المدنى ( إيابهم ) بالتشديد . قال صاحب الكشاف : وجهه أن يكون فيعالا مصدر أيب فيعل من الإياب ، أو يكون أصله أواباً فعالا من أوب ، ثم قيل إيواباً كديوان فى دون ، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فائدة تقديم الظرف التشديد بالوعيد ، فإن ( إيابهم ) ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الإنتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه ، وهو الذى يحاسب على النقير والقطمير ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



# ٨٨ — سورة الغاشية
(مكية وهي ست وعشرون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١) ٨٨ الغاشية

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) ٨٨ الغاشية

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) ٨٨ الغاشية

تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) ٨٨ الغاشية

﴿ سورة الغاشية مكية وآيها ست وعشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (هل أتاك حديث الغاشية) قيل هل بمعنى قد كما في قوله تعالى هل أتى
على الإنسان الآية قال قطرب أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية وليس بذاك بل هو استفهام أريد
به التعجيب مما في حيزه والتشويق إلى استماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن
يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد والغاشية الداهية الشديدة التي تغشى الناس
بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهي القيامة من قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب الخ وقيل هي النار من
قوله تعالى وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى ومن فوقهم غواش والأول هو الحق فإن ما سيروى من
٢ حديثها ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضاً وقوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة)
إلى قوله تعالى مبثوثة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي كأنه قيل من جهته
عليه الصلاة والسلام ما أتاني حديثها فما هو فقيل وجوه يومئذ أي يوم إذ غشيت ذليلة قال ابن عباس
رضي الله عنهما لم يكن أتاه عليه الصلاة والسلام حديثها فأخبره عليه الصلاة والسلام عنها فقال وجوه
٣ الخ فوجوه مبتدأ ولا بأس بتنكيرها لأنها في موقع التنويع وخاشعة خبره وقوله تعالى (عاملة ناصبة)
خبران آخران لوجوه إذ المراد بها أصحابها أي تعمل أعمالا شاقة تتعب فيها وهي جر السلاسل
والأغلال والخوض في النار خوض الإبل في الوحل والصعود والهبوط في تلال النار ووهادها
وقيل عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها فهي يومئذ في نصب منها وقيل عملت ونصبت في أعمال
٤ لا تجدي عليها في الآخرة وقوله تعالى (تصلى) أي تدخل (ناراً حامية) أي متناهية في الحر خبر
آخر لوجوه وقيل هو الخبر وما قبله صفات لوجوه وقد مر غير مرة أن الصفة حقها أن تكون معلومة

تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ ٨٨ الغاشية

لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ٨٨ الغاشية

لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ٨٨ الغاشية

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ ٨٨ الغاشية

---

الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعلها صفة له ولاريب فى أن صلى النار وما قبله من الخشوع
والعمل والنصب أمور متساوية فى الانتساب إلى الوجوه معرفة وجهالة لجعل بعضها عنواناً للموضوع
قيداً مفروغاعنه غير مقصود الإفادة وبعضها مناطاً للإفادة تحكم بحت ويجوز أن يكون هذا وما بعده
٥ من الجملتين استئنافا مبيناً لتفاصيل أحوالها ( تسقى من عين آنية ) أى متناهية فى الحر كما فى قوله تعالى
٦ وبين حميم آن (ليس لهم طعام إلا من ضريع) بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم والضريع يبيس الشبرق
وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطباً وإذا يبس تحامته وهو سم قاتل وقيل هى شجرة نارية تشبه الضريع
وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه فسمى
٧ بذلك وهذا طعام لبعض أهل النار والزقوم والغسلين لآخرين ( لا يسمن ولا يغنى من جوع ) أى
ليس من شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا وإنما هو شىء يضطرون إلى أكله من غير
أن يكون له دفع لضرورتهم لكن لاعلى أن لهم استعداداً للشبع والسمن إلا أنه لايفيدهم شيئاً منهما
بل على أنه لا استعداد من جهتهم ولا إفادة من جهة طعامهم وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا
من قبيل ماهو المعهود منهما فى هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل مايتحلل
من البدن مشوقة له إلى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ويستغنى بهما عن
غيرهما عند استقرارهما فى المعدة ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن
اضطرام النار فى أحشائهم إلى إدخال شىء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب وإما أن يكون لهم
شوق إلى مطعوم ما أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوة فهيهات وكذا
عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه فى بطونهم إلى شىء مائع بارد يطفئه من غير
أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة به فى الجملة وهو المعنى بماروى أنه تعالى يسلط عليهم الجوع
بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم فيشوى
وجوههم ويقطع أمعاءهم وتنكير الجوع للتحقير أى لايغنى من جوع ما وتأخير نفى الإغناء منه
لمراعاة الفواصل والتوسل به إلى التصريح بنفى كلا الأمرين إذ لوقدم لما احتيج إلى ذكر نفى الإسمان
ضرورة استلزام نفى الإغناء عن الجوع إياه بخلاف العكس ولذلك كرر لا لتأكيد النفى وقوله تعالى
٨ ( وجوه يومئذ ناعمة ) شروع فى رواية حديث أهل الجنة وتقديم حكاية حال أهل النار لأنه أدخل

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) ٨٨ الغاشية

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ٨٨ الغاشية

لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) ٨٨ الغاشية

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) ٨٨ الغاشية

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) ٨٨ الغاشية

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) ٨٨ الغاشية

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) ٨٨ الغاشية

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ٨٨ الغاشية

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ٨٨ الغاشية

---

فى تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار
مما يزيد المحكى حسناً وبهجة والكلام فى إعراب الجملة كالذى مر فى نظيرتها وإنما لم تعطف عليها إيذاناً
بكمال تباين مضمونيهما ومعنى ناعمة ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم
٩، ١٠ أو متنعمة ( لسعيها راضية ) أى لعملها الذى عملته فى الدنيا حيث شاهدت ثمرته ( فى جنة عالية )
١١ مرتفعة المحل أو علية المقدار ( لا تسمع ) أى أنت أو الوجوه ( فيها لاغية ) لغواً أو كلمة ذات لغو
أو نفساً تلغو فإن كلام أهل الجنة كله أذكار وحكم وقرىء لا تسمع على البناء للمفعول بالياء والتاء
١٢، ١٣ ورفع لاغية ( فيها عين جارية ) أى عيون كثيرة تجرى مياهها كقوله تعالى علمت نفس ( فيها سرر
١٤ مرفوعة ) رفيعة السمك أو المقدار ( وأكواب ) جمع كوب وهو إناء لا عروة له (موضوعة) أى بين
١٥، ١٦ أيديهم ( ونمارق ) وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم ( مصفوفة ) بعضها إلى بعض ( وزرابى ) أى
١٧ بسط فاخرة جمع زربية ( مبثوثة ) أى مبسوطة ( أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ) استئناف
مسوق لتقرير مافصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون بالاستشهاد
عليه بما لا يستطيعون إنكاره والهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام
وكلمة كيف منصوبة بما بعدها كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله معلقة لفعل النظر والجملة فى حيز
الجر على أنها بدل اشتمال من الإبل أى أينكرون ماذكر من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه
من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل حين إلى أنها كيف

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ٨٨ الغاشية

وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ٨٨ الغاشية

وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ٨٨ الغاشية

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ٨٨ الغاشية

لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ٨٨ الغاشية

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ٨٨ الغاشية

خلقت خلقاً بديعاً معدولا به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب
هيآتها اللائقة بتأتى مايصدر عنها من الأفاعيل الشاقة كالنوء بالأوقار الثقيلة وجر الأثقال الفادحة إلى
الأقطار النازحة وفى صبرها على الجوع والعطش حتى إن أظماءها لتبلغ العشر فصاعداً واكتفائها
باليسير ورعيها لكل مايتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لايكاد يرعاه سائر البهائم وفى انقيادها
مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ويقتادها
١٨ بقطارها كل صغير وكبير (وإلى السماء) التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار (كيف رفعت) رفعا
١٩ سحيق المدى بلا عماد ولامساك بحيث لايناله الفهم والإدراك (وإلى الجبال) التى ينزلون فى أقطارها
٢٠ وينتفعون بمياهها وأشجارها (كيف نصبت) نصبا رصينا فهى راسخة لاتميل ولا تميد (وإلى الأرض)
التى يضربون فيها ويتقلبون عليها (كيف سطحت) سطحاً بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما
يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق وقرىء سطحت مشدداً وقرئت الأفعال الأربعة على بناء
الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق
هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور ويسمعوا
٢١ إنذارك ويستعدوا للقائه بالإيمان والطاعة والفاء فى قوله تعالى (فذكر) لترتيب الأمر بالتذكير على
ماينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر أى فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم
٢٢ لاينظرون ولايتذكرون وقوله تعالى (إنما أنت مذكر) تعليل للأمر وقوله تعالى (لست عليهم بمصيطر)
تقرير له وتحقيق لمعنى الإنذار أى لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ماتريد كقوله تعالى وما أنت عليهم
بجبار وقرىء بالسين على الأصل وبالإشمام وقرىء بفتح الطاء قيل هى لغة بنى تميم فإن سيطر عندهم
٢٣ متعد ومنه قولهم تسيطر وقوله تعالى (إلا من تولى وكفر) استثناء منقطع أى لكن من تولى منهم
فإن لله تعالى الولاية والقهر .

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ٨٨ الغاشية

إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ٨٨ الغاشية

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ٨٨ الغاشية

٢٤ (فيعذبه الله العذاب الأكبر) الذى هو عذاب جهنم وقيل استثناء متصل من قوله تعالى فذكر أى فذكر
إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض ويعضد الأول
٢٥ أنه قرىء ألا على التنبيه وقوله تعالى (إن إلينا إيابهم) تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر أى إن
إلينا رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالا ولا اشتراكا وجمع الضمير فيه وفيما
بعده باعتبار معنى من كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرىء إيابهم على أنه فيعال مصدر فيعل
من الأياب أو فعال من أوب كفسار من فسر ثم قيل إيوابا كديوان فى دوان ثم قلبت الواو ياء
٢٦ فادغمت الياء الأولى فى الثانية (ثم إن علينا حسابهم) فى المحشر لا على غيرنا وثم للتراخى فى الرتبة
لا فى الزمان فإن الترتب الزمانى بين إيابهم وحسابهم لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى
فإنهما أمران مستمران وفى تصدير الجملتين بأن وتقديم خبرهما وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم
المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى .
عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الغاشية يحاسبه الله تعالى حساباً يسيراً .

## سورة الغاشية

مكية بلا خلاف وعدة آياتها ست وعشرون كذلك وكان صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج مسلم وأبو داود والنسائي

وابن ماجه عن النعمان بن بشير يقرؤها في الجمعة مع سورتها ولما أشار سبحانه فيما قبل الى المؤمن والكافر والجنة والنار اجمالا بسط الكلام هنا فقال عز قائلا

(بسم الله الرحمن الرحيم * هل أتاك حديث الغاشية) قيل هل بمعنى قد وهو ظاهر كلام قطرب حيث قال أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية والمختار أنه للاستفهام وهو استفهام أريد به التعجيب مما في حيزه والتشويق الى استماعه والاشعار بأنه من الاحاديث البديعة التى حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس فى تلقنها الوعاة وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن ميمون قال مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على امرأة تقرأ هل أتاك حديث الغاشية فقام عليه الصلاة والسلام يستمع ويقول نعم قد جاءني والغاشية القيامة كما قال سفيان والجمهور وأطلق عليها ذلك لانها تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وقال محمد بن كعب وابن جبير هي النار من قوله تعالى وتغشى وجوههم النار وقوله سبحانه ومن فوقهم غواش وليس بذاك فان ما سيرى من حديثها ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق باحوال أهل الجنة أيضا (وجوه يومئذ) المرفوع مبتدأ وجاز الابتداء به وان كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع وقيل لان تقدير الكلام أصحاب وجوه والخبر مابعد والظرف متعلق به والتنوين عوض عن جملة اشعرت بها الغاشية أي يوم اذ غشيت والجملة الى قوله تعالى مبثوثة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي كانه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ما أتاني حديثها ما هو فقيل وجوه الخ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يكن أتاه صلى الله تعالى عليه وسلم حديثها فاخبره سبحانه عنها فقال جل وعلا وجوه يومئذ (خاشعة) والمراد بخاشعة ذليلة ولم توصف بالذل ابتداء لما فى وصفها بالخشوع من الاشارة الى التهكم وانها لم تخشع في وقت ينفع فيه الخشوع وكذا حال وصفها بالعمل في قوله سبحانه (عاملة) على ماقيل وهو وقوله تعالى (ناصبة) خبران آخران لوجوه اذ المراد بها أصحابها وفي ذلك الاحتمالات أخر ستاتى ان شاء الله تعالى أي عاملة في ذلك اليوم تعبة فيه وذلك في النار على ماروى عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وعملها فيها على ما قيل جر السلاسل والاغلال والخوض فيها خوض الابل في الوحل والصعود والهبوط في تلالها ووهادها وذلك جزاء التكبر عن العمل وطاعة الله تعالى في الدنيا وعن زيد ابن اسلم أنه قال أي عاملة في الدنيا ناصبة فيها لانها على غير هدى فلا ثمرة لها الا النصب وخاتمته النار وجاء ذلك في رواية أخرى عن ابن عباس وابن جبير أيضا والظاهر أن الخشوع عند هؤلاء باق على كونه في الآخرة وعليه فيومئذ لا تعلق له بالوصفين معنى بل متعلقهما في الدنيا ولا يخفى مافي هذا الوجه من البعد لظهور ان العمل لا يكون في الآخرة بعد تسليمه لا يجدي نفعاً في دفع بعده وقال عكرمة عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة والظاهر أن الخشوع على مامر ولا يخفى مافي جعل الحاظ باستقباليين ماضويا من البعد وقيل الاوصاف الثلاثة في الدنيا والكلام على منوال * إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أي ظهر لهم يومئذ أنها كانت خاشعة عاملة ناصبة في الدنيا من غير نفع وأما قبل ذلك اليوم فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وهؤلاء النساك من اليهود والنصارى كما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ويشمل غيرهم مما شاكلهم من نساك أهل الضلال وهذا الوجه أبعد من أخويه وقوله تعالى (تصلى نارا حامية) متناهية في الحر من حميت النار اذا اشتد حرها خبر آخر لوجوه وقيل خاشعة صفة لها وما بعد أخبار وقيل الاولان صفتان والاخيران خبران وقيل الثلاثة الاول صفات وهذه الجملة هى الخبر

والشكل كما ترى وجوز أن يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافا مبيناً لتفاصيل أحوالها وقرأ ابن كثير في رواية شبل وحميد وابن محيصن عاملة ناصبة بالنصب على الذم وقرأ أبو رجاء وابن محيصن ويعقوب وأبو عمرو وأبو بكر تصلى بضم التاء وقرأ خارجة تصلى بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام للمبالغة ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ بلغت اناها أي غايتها في الحر فهي متناهية فيه كما في قوله تعالى وبين حميم آن وهو التفسير المشهور وقد روي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقال ابن زيد أي حاضرة لهم من قولهم أنى الشيء حضر وليس بذاك ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾ بيان لطعامهم أثر بيان شرابهم والضريع كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس الشبرق اليابس وهي على ما قال عكرمة شجرة ذات شوك لاطئة بالارض وقال غير واحد هو جنس من الشوك ترعاه الابل رطبا فاذا يبس تحامته وهو سم قاتل قال أبو ذؤيب

رعى الشبرق الريان حتى اذا ذوى ✡ وصار ضريعا بان عنه النحائص

وقال ابن غرارة الهذلي يذكر ابلا وسوء مرعى

وحبسن في هزم الضريع فكلها ✡ حدباء دامية اليدين حرود

وقال بعض اللغويين الضريع يبيس العرفج اذا انحطم وقال الزجاج نبت كالعوسج وقال الخليل نبت أخضر منتن الريح يرمى به البحر والظاهر أن المراد ما هو ضريع حقيقة وقيل هو شجرة نارية تشبه الضريع وأنت تعلم انه لا يعجز الله تعالى الذي اخرج من الشجر الاخضر نارا ان ينبت في النار شجر الضريع نعم يؤيد ما قيل ما حكاه في البحور الزاخرة عن البغوي عن ابن عباس يرفعه الضريع شيء في النار شبه الشوك امر من الصبر وانتن من الجيفة واشد حرا من النار فان صح فذاك وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون الى الله تعالى طلبا للخلاص منه فسمي بذلك وعليه يحتمل ان يكون شجراً وغيره وعن الحسن وجماعة انه الزقوم وعن ابن جبير انه حجارة في النار وقيل هو واد في جهنم اى ليس لهم طعام الا من ذلك الموضع ولعله هو الموضع الذي يسيل اليه صديد اهل النار وهو الغسلين وعليه يكون التوفيق بين هذا الحصر والحصر في قوله تعالى ولا طعام الا من غسلين ظاهرا بان يكون طعامهم من ذلك الوادي هو الغسلين الذي يسيل اليه وكذا إذا أريد به ما قاله ابن كيسان واتحد به وقد يتحد بهما عليه أيضا الزقوم واتحاده بالضريع على القول بانه شجرة قريب وقيل في التوفيق ان الضريع مجاز أو كناية اريد به طعام مكروه حتى للابل وغيرها من الحيوانات التي تلتذ رعي الشوك فلا ينافي كونه زقوما أو غسلينا وقيل انه اريد ان لا طعام لهم اصلا لان الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الناس كما يقال ليس لفلان ظل الا الشمس اى لا ظل له وعليه يحمل قوله تعالى ولا طعام الا من غسلين وقوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم فلا مخالفة اصلا وقيل ان الغسلين وهو الصديد في القدرة الالهية ان تجعله على هيئة الضريع والزقوم فطعامهم الغسلين والزقوم اللذان هما الضريع ولا يخفى تعسفه على الرضيع وقد يقال في التوفيق على القول بأن الثلاثة متغايرة بالذات ان العذاب ألوان والمعذبون طبقات فمنهم أكلة لزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع لكل باب منهم جزء مقسوم ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ اما في محل جر صفة لضريع والمعنى أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الانس وانما هو شوك والشوك مما ترعاه الابل وتتولع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما اماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن وان شئت فقل انه من شيء مكروه يضرع عنده ويتضرع الى الله تعالى ويطلب منه سبحانه الخلاص عنه وليس فيه منفعتا الغذاء اصلا واما في محل رفع صفة

لطعام المقدر اذ التقدير ليس لهم طعام الا طعام من ضريع والمعنى قريب مما ذكر ولا يجوز كونه صفة للمذكور اذلا يدل حينئذ على ان طعامهم منحصر في الضريع بل يدل على ان مالا يسمن ولا يغني من طعامهم منحصر فيه ويفسد المعنى واما لامحل له من الاعراب على أنه مستأنف والاول أظهر ويروى ان كفار قريش قالوا لما سمعوا صدر الآية ان الضريع لتسمن عليه ابلنا فنزلت لايسمن الخ قيل فلا يخلوا اما أن يتكذبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر فيرد قولهم بنفي السمن والشبع واما أن يصدقوا فيكون المعنى ان طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم انما هو غير مسمن ولا مغن من جوع وعلى الاول هو صفة مؤكدة ردا لما زعموه لا كاشفة اذ لاخفاء وعلى الثاني هو صفة مخصصة وايا ما كان فتنكير الجوع للتحقير أي لايغني من جوع ما وتاخير نفي الاغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به الى التصريح بنفي كلا الامرين اذ لوقدم لما احتيج الى ذكر نفي الاسمان ضرورة استلزام نفي الاغناء عن الجوع اياه ولذلك كرر لالتا كيد النفي وفي الارشاد ان نفي الامرين عنه ليس على أن لهم استعداداً للشبع والسمن الا أنه لايفيد شيئا منهما بل على أنه لااستعداد من جهتهم ولا افادة من جهته وتحقيق ذلك ان جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ماهو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للانسان عند استدعاء الطبيعة لبدل مايتحلل من البدن مشوقة له الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الاكل والشرب ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمناً عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم الى ادخال شيء كثيف يملؤها ويخرج مافيها من اللهب وأما أن يكون لهم شوق الى مطعوم ما والتذاذ به عند الاكل واستغناء به عن الغير واستفادة قوة فهيهات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم الى شيء مائع بارد ليطفؤه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة به في الجملة وهو المعنى بما روى انه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرون الى أكل الضريع فاذا أكلوه سلط عليهم العطش فاضطروا الى شرب الحميم فيشوى وجوههم ويقطع امعاءهم اعاذنا الله تعالى وسائر المسلمين من ذلك انتهى وهو خلاف الظاهر ومثله لايقال عن الرأي وليس له فيما وقفنا عليه مستند يؤول لاجله الظواهر فالحق أن لهم جوعا وعطشاً وشهوة الى الطعام والشراب كما أن للجائع والعطشان في الدنيا شهوة اليهما لكنهما لهم هناك قد بلغا الغاية بتسليط الله تعالى عز وجل بدون سبب عادى على نحو ما في الدنيا فيضطرون لذلك الى الضريع والحميم كما يضطر من أفرط فيه الجوع والعطش في الدنيا الى تناول الكريه البشع من المطعوم والمشروب لكنهم لاينتفعون بما يتناولونه بل يزدادون به عذابا فوق العذاب نسأل الله تعالى العفو والعافية بمنه وكرمه وقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ شروع في رواية حديث أهل الجنة وتقديم حكاية أهل النار لانه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولان حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكي حسنا وبهجة والكلام في اعرابه نظير ماتقدم وانما لم تعطف هذه الجملة على تلك الجملة ايذانا بكمال تباين مضمونيهما والناعمة اما من النعومة وكنى بها عن البهجة وحسن المنظر أي وجوه يومئذ ذات بهجة وحسن كقوله تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم أو من النعيم أي وجوه يومئذ متنعمة ﴿ لِسَعْيِهَا ﴾ أي لعملها الذي عملته في دار الدنيا وهو متعلق بقوله تعالى ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ والتقديم للاعتناء مع رعاية الفاصلة واللام ليست للتعليل بل مثلها في رضيت بكذا فكأنه قيل راضية بسعيها وذكر بعض المحققين أنها مقوية لتعدى الوصف بنفسه ولذا قال سفيان في ذلك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم رضيت عملها ورضاها به كناية أو مجاز عن أنه محمود العاقبة مجازى عليه أعظم الجزاء وأحسنه

وقيل في الكلام مضاف مقدر أي لثواب سعيها راضية وجوز كون اللام للتعليل أي لاجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية حيث أوتيت ما أوتيت من الخير وليس بذاك ﴿ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المحل أو علية القدر فالعلو إما حسي أومعنوي وجمع أبو حيان بينهما ﴿ لاَ تَسْمَعُ ﴾ خطاب لكل من يصلح للخطاب أو هو مسند الى ضمير الغائبة المؤنثة وهوراجع للوجوه على أن المراد بها أصحابها أو الاسناد مجازي وكذا يقال فيما قبل وأشار بعض الى أن في الآية صنعة الاستخدام اختيارا لان المراد بالوجوه أولا حقيقتها وعند ارجاع الضمير اليها ثانيا أصحابها فهم الذين لا يسمعون ﴿ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ أي لغواً فهي مصدر بمعناه ويجوز كونها صفة كلمة محذوفة على أنها للنسب أي كلمة ذات لغو وجوز على تقدير كونها صفة كون الاسناد مجازيا لان الكلمة ملغو بها لا لاغية ويجوز أن تكون صفة نفس محذوفة أي لا تسمع فيها نفسا لاغية و جعلها مسموعة لو صفها بما يسمع كما تقول سمعت زيدا يقول كذا وجوز أن يكون ذلك على المجاز في الاسناد أيضا وقرأ الاعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم لا تسمع بتاء التأنيث مبنيا للمفعول لاغية بالرفع وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك الا أنهم قرؤا بالياء التحتية لان التأنيث مجازي مع وجود الفاصل والجحدري كذلك الا انه نصب لاغية على معنى لا يسمع فيها أي أحد لاغية من قولك أسمعت زيدا ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ قيل يجري ماؤها ولا ينقطع وعدم الانقطاع اما من وصف العين لانها الماء الجاري فوصفها بالجريان يدل على المبالغة كما في نار حامية واما من اسم الفاعل فانه للاستمرار بقرينة المقام والتنكير للتعظيم واختار الزمخشري كونه للتكثير كما في علمت نفس أي عيون كثيرة تجري مياهها ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعة السمك أو المقدار وقيل مخبوءة من رفعت لك كذا أي خبأته ﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ وقداح لا عرا لها ﴿ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أي بين أيديهم وقيل على حافات العيون وجوز ان يراد موضوعة عن حد الكبار أوساط بين الصغر والكبر كقوله تعالى قدروها تقديرا ولا يخفى بعده ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ ووسائد قال زهير

كهولا وشباناً حساناً وجوههم ✡ على سرر مصفوفة ونمارق

جمع نمرقة بضم النون والراء وبكسرهما وفتحهما وبغير هاء ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ صف بعضها الى جنب بعض للاستناد اليها والاتكاء عليها وقال الكلبي وسائد موضوعة بعضها الى جنب بعض كالشيء الذي جعل صفا أينما أراد أن يجلس المؤمن جلس على واحدة واستند الى أخرى وعلى رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ وبسط فاخرة كما قال غير واحد وقال الفراء هي الطنافس التي لها خمل رقيق وقال الراغب أنها في الاصل ثياب محبرة منسوبة الى موضع ثم استعيرت للبسط واحدها زربية مثلثة الزاي ولم يفرق في الصحاح بين الزرابي والنمارق والظاهر الفرق نعم قيل قد جاء نمارق بمعنى الزرابي ومنه

نحن بنات طارق ✡ نمشي على النمارق

لظهور أن الوسائد لا يمشى عليها عادة ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة أو مفرقة في المجالس ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ استئناف مسوق لتقرير مافصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون انكاره وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال لما نعت الله تعالى مافي الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فانزل سبحانه وتعالى أفلا ينظرون الخ و يرجع هذا في الآخرة الى انكار البعث كما لا يخفى والهمزة للانكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر

يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها على أنها حال من مرفوع خلقت كما في قوله تعالى كيف تكفرون بالله معلقة لفعل النظر والجملة بدل اشتمال من الابل وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذى قبلها كقولهم عرفت زيدا أبو من هو على أصح الاقوال على ان العرب قد ادخلت الى على كيف بلا واسطة ابدال كما أدخلت عليها على فحكى عنهم انهم قالوا انظر الى كيف يصنع كما حكى عنهم انهم قالوا على كيف تبيع الاحمرين وذكر أبو حيان فى البحر والتذكرة وغيرها أنه اذا علق الفعل عما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته وقيل كيف بدل من الابل وتعقبه في المغنى بما في بعضه نظر وجوز فى مجمع البيان كونها في موضع نصب على المصدر وهو كما ترى والابل يقع على البعران الكثيرة ولا واحد له من لفظه وهو مؤنث ولذا اذا صغر دخلته التاء فقالوا أبيلة وقالوا في الجمع آبال وقد اشتقوا من لفظه فقالوا أبل وتابل الرجل وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا ما آبل زيدا ولم يحفظ سيبويه فيما قيل اسما جاء على فعل بكسر الفاء والعين غير ابل أى أينكرون ما أشير اليه من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون الى الابل التى هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلق أكثر أنواع الحيوانات في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيآتها اللائقة بتأتى ما يصدر عنها من الافاعيل الشاقة كالنوء بالاوقار الثقيلة وهي باركة وايصالها الاثقال الفادحة الى الاقطار النازحة وفي صبرها على الجوع والعطش حتى ان ظمأها ليبلغ العشر بكسر فسكون وهو ثمانية أيام بين الوردين وربما يجوز ذلك وتسمى حينئذ الحوازى بالحاء المهملة والزاى واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفي انقيادها مع ذلك للانسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير وفي تأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها الى غير ذلك وخصت بالذكر لانها أعجب ما عند العرب من الحيوانات التى هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا ولهم على أحوالها أتم وقوف وعن الحسن أنها خصت بالذكر لانها تأكل النوى والقت وتخرج اللبن وقيل له الفيل أعظم فى الاعجوبة فقال العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره أى على نحو ما يركب ظهر البعير من غير مشقة فى ترويضه ولا يحلب دره وقال أبو العباس المبرد الابل هنا السحاب لان العرب قد تسميها بذلك اذ تأتى ارسالا كالابل وتزجى كما تزجى الابل وهي فى هيآتها احيانا تشبه الابل يعنى ان ارادته منها هنا على طريق التشبيه والمجاز وكأنه كما قال الزمخشرى لم يدع القائل بذلك الاطلب المناسبة بين المتعاطفات على ما يقتضيه قانون البلاغة وهي حاصلة مع بقاء الابل في عطنها قال الامام التناسب فيها ان الكلام مع العرب وهم أهل أسفار على الابل فى البرارى فربما انفردوا فيها والمنفرد يتفكر لعدم رفيق يحادثه وشاغل يشغله فيتفكر فيما يقع عليه طرفه فاذا نظر لما معه رأى الابل واذا نظر لما فوقه رأى السماء واذا نظر يمينا وشمالا رأى الجبال واذا نظر لاسفل رأى الارض فأمر بالنظر في خلوته لما يتعلق به النظر من هذه الامور فبينها مناسبة بهذا الاعتبار وقال عصام الدين ان خيال العرب جامع بين الاربعة لان مالهم النفيس الابل ومدار السقى لهم على السماء ورعيهم فى الارض وحفظ مالهم بالجبال وما ألطف ذكر الابل بعد ذكر الضريع فان خطورها بعده على طرف التمام واذا صح ما روى من كلام قريش عند نزول تلك الآية كان ذكرها ألطف وألطف وقرأ الاصمعى عن أبى عمرو الى الابل بسكون الباء وقرأ على كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضى الله تعالى عنهما ابل بتشديد اللام ورويت عن أبى عمرو وأبى جعفر والكسائى وقالوا انها السحاب عن قوم من أهل اللغة

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ﴾ التي يشاهدونها ليلا ونهارا ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا مساك بحيث لا يناله الفهم والادراك ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمائها وأشجارها ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وضعت وضعا ثابتا يتأتى معه ارتقاؤها فلا تميل ولا تميد ويمكن الرقي الى دارها ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور أهلها ولا ينافي ذلك القول بأنها قريبة من الكرة الحقيقية لمكان عظمها وقرأ على كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة وابن أبي عبلة خلقت رفعت نصبت سطحت بتاء المتكلم مبنيا للفاعل والمفعول ضمير محذوف وهو العائد الى المبدل منه بدل اشتمال أي خلقتها رفعتها نصبتها سطحتها وقرأ الحسن وهرون الرشيد سطحت بتشديد الطاء والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار الى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الانكار والنفور ويسمعوا انذارك ويستعدوا للقائه بالايمان والطاعة وجوز أن يحمل النظر على الابصار ويكون فيه دعوى ظهور المطلوب بحيث يظهر بمجرد أبصار هذه المخلوقات وهو خلاف الظاهر والفاء في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الامر بالتذكير على ما ينبيء عنه الانكار السابق من عدم النظر أي فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك انهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للامر وقوله سبحانه ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقرير له وتحقيق لمعنى الانذار أي لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار وقرأ الجمهور بمصيطر بالصاد وكسر الطاء والاصل السين والصاد بدل منه فانه من السطر بمعنى التسلط يقال سطر عليه اذا تسلط وقرأ حمزة في رواية باشمام الصاد زايا وهرون بفتح الطاء وهي لغة تميم وسيطر متعد عندهم ويدل عليه قولهم تسيطر لمكان المطاوعة وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ قيل استثناء منقطع والا فيه بمعنى لكن ومن موصولة مبتدأ وما بعدها صلة والعائد الضمير المستتر فيه وقوله سبحانه ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ خبر المبتدا والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط نحو الذي يأتيني فله درهم وجعل من شرطية يبعده وجود الفاء فيما يصلح لجوابيتها بدونها وتقدير فهو يعذبه تكلف مستغنى عنه وأياما كان فمن المنقطع ما يقع بعد الا فيه جملة أي لكن من أعرض وأقام على الكفر منهم يعذبه الله تعالى العذاب الاكبر وهذا عذاب الآخرة في النار فانه الاكبر وعذاب الدنيا بالنسبة اليه أصغر وجعل الزمخشري الانقطاع على معنى لست بمستول عليهم لكن من تولى وكفر منهم فان لله تعالى الولاية عليه والقهر فيعذبه في نار جهنم ولم يجعل على ما قيل متصلا لانه يلزم عليه كونه صلى الله تعالى عليه وسلم مستوليا على من تولى وقد حصرت الولاية به تعالى وجوز اتصاله بأن يكون من ضمير عليهم فيكون من في محل جر تابعا له وتسلطه صلى الله تعالى عليه وسلم على المتولى باعتبار جهاده وقتله الذي وعد به عليه الصلاة والسلام ولا ينافي حصر الولاية به تعالى لانه بأمره عز وجل فكأنه قيل لست عليهم بمسيطر الا على من تولى وأقام على الكفر فانك متسلط عليه بما يؤذن لك من جهاده وقتله وسبيه وأسره وبعد ذلك يعذبه الله تعالى في جهنم فيكون في الآية ايعاد لهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وجوز أن يكون ايعادا بالجهاد فقط على أن المراد بالعذاب الاكبر القتل وسبي النساء والاولاد وسائر ما يترتب على الجهاد من البلايا فيكون فيه اشارة الى أن هذه الامة أكبر عذابهم في الدنيا ذلك لا ما كان في الامم السابقة من الخسف والمسخ ونحوهما وأقيم فيعذبه الخ مقام فتكون عليه

متسلطا ايذانا بأن ذلك من قبله عز وجل حتى كأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لادخل له فيه وقال عصام الدين في كون الاستثناء منقطعا اشكال لان المستثنى المنقطع هو المذكور بعدا لا غير مخرج عن متعدد قبله لعدم دخوله فيه مخالف له فى الحكم وليس من تولى وكفر خارجا عن قوله تعالى عليهم وليس حكمهم مخالفا له ثم أجاب بان الاستثناء المنقطع قد يكون لدفع توهم ناشيء مما سبق من غير ان يخالف المستثنى منه في الحكم فالواجب ذكر حكم له ليعلم انه ليس حكمه مخالفا لحكم المستثنى منه فكأنه ههنا لدفع توهم التعذيب فتأمل وجوز كون الاستثناء متصلا من قوله تعالى فذكر ومن موصولة لاغير والمراد بالعذاب استحقاق العذاب أى فذكر الا من انقطع طمعك من ايمانه وتولى فاستحق العذاب الاكبر وقوله انما أنت الخ على هذا اعتراض ورجح الانقطاع بان ابن عباس وزيد بن على وقتادة وزيد بن أسلم قرؤا ألا حرف تنبيه واستفتاح وقوله تعالى ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ تعليل لتعذيبه تعالى اياهم بالعذاب الاكبر واياب مصدر آب أى رجع أى ان الينا رجوعهم بالموت والبعث لا الى أحد سوانا لااستقلالا ولا اشتراكا وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما أن افراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرأ أبو جعفر وشيبة ايابهم بتشديد الياء قال البطليوسى فى كتاب المثلثات هذه القراءة تحتمل تأويلين أحدهما أن يكون اياب بالتشديد فعالا من أوب على زنة فعل ككذب كذابا وأصله أواب فلم يعتد بالواو الاولى حاجزا لضعفها بالسكون فابدل من الواو الثانية ياء لانكسار الهمزة فصار في التقدير أويابا ثم قلبت الاولى ياء أيضا لاجتماع ياء وواو وسكون احداهما ولان الواو الاولى اذا لم تمنع من انقلاب الثانية فهى أجدر بالانقلاب والثانى أن يكون فيعالا وأصله ايوابا فاعل اعلال سيد وفعله على هذا أيب على وزن فيعل كحوقل حيقالا من الاياب وأصله ايوب فأعل كما ذكرنا والوجه الاول اقيس لانهم قالوا في مصدره التاويب والتفعيل مصدر فعل لافيعل ومع ذلك فقد قالوا هو سريع الاوبة والايبة فكأنهم آثروا الياء لخفتها انتهى وقد ذكر هذين الوجهين الزمخشرى الا انه فى الاول منهما يجوز أن يكون أصله أوابا فعالا من أوب ثم قيل ايوابا كديوان في دوان ثم فعل به ما فعل باصل سيد وظاهره أن الواو الاولى هي التى قلبت أولا ياء واعترض بان المقرر أن الواو الاولى اذا كانت موضوعة على الادغام وجاء ما قبلها مكسورا لاتقلب ياء لاجل الكسر كما في اخرواط مصدر اخروط وان ديوانا اذا كان مذكورا للقياس عليه لا للتنظير لا يصلح لذلك لنصهم على شذوذه وكأن البطليوسى عدل الى ماعدل لذلك وفي الكشف لو جعل مصدر فاعل من الاوب فقد جاء فيه فيعال حتى قال بعضهم ان فعالا مخفف عنه لكان أظهر لان فيعل لا يثبت الا بثبت والاول كالمنقاس ومعنى المفاعلة حينئذ اما المبالغة واما مسابقة بعضهم بعضا في الاوب وأما جعله فعالا على ما قرر الزمخشرى فابعد الى آخر كلامه وكونه من فاعل جوزه ابن عطية أيضا لكنه قال ويصح ان يكون من أوب فيجيء ايوابا سهلت همزته وكان اللازم في الادغام يردها اوابا لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس فاعترضه أبو حيان بان قوله وكان اللازم الخ ليس بصحيح بل اللازم اذا اعتبر الادغام ان يكون ايابا لانه قد اجتمعت ياء وهى المبدلة من الهمزة بالتسهيل وواو وهي عين الكلمة واحداهما ساكنة فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير ايابا فلا تغفل ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ في المحشر لا على غيرنا وثم للتراخي الرتبى لا الزمانى فان الترتيب الزمانى بين ايابهم وحسابهم لابين كون ايابهم اليه تعالى وحسابهم عليه سبحانه فانهما أمران مستمران وفي تصدير الجملتين بان وتقديم خبرها والاتيان بضمير العظمة وعطف الثانية على الاولى بثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الانباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب مالا يخفى وفي الآية رد على كثير من الشيعة حيث زعموا ان حساب الخلائق على الامير

كرم الله تعالى وجهه واستدلوا على ذلك بما افتروه عليه وعلى أهل بيته رضى الله تعالى عنهم أجمعين من الاخبار ومعنى قوله كرم الله تعالى وجهه أنا قسيم الجنة والنار ان صح أن الناس من هذه الامة فريقان فريق معى فهم على هدى وفريق على فهم على ضلال فقسم معى في الجنة وقسم في النار ولعلهم عنوا أن عليا كرم الله تعالى وجهه يحاسب الخلائق بامره عز وجل كما يقول غيرهم بان الملائكة عليهم السلام يحاسبونهم بامره جل وعلا وهو معنى لا ينافي الحصر الذى تقتضيه الآية لكنه لم يثبت وأى خصوصية في الامير كرم الله تعالى وجهه من بين جميع الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام أجمعين تقتضيه ولا نقص له كرم الله تعالى وجهه في نفى ذلك عنه ويكفيه رضى الله تعالى عنه من ظهور شرفه يوم القيامة انه يزف الى الجنة بين النبى وابراهيم عليهما وعليه الصلاة والسلام كما جاء فى الحديث الى غير ذلك مما يظهر في ذلك اليوم والله تعالى أعلم

# سـورة الغاشيـة

## وهي مكية في قول الجميع، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ .

﴿ هل ﴾ بمعنى قد ؛ كقوله : ﴿ هل أتى على الإنسانِ ﴾[٣]؛ قاله قُطْرب . أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب : ﴿ الغاشية ﴾ : النار تَغْشَى وجوه الكفار ؛ ورواه أبو صالح

---

(١) زيادة من «الدر المنثور».

(٢) في «الدر المنثور» «يحاسب فيها نفسه، ويتفكر فيها صنع...». (٣) آية ١ سورة الإنسان.

عن ابن عباس؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وتَغْشَى وجوهَهُمُ النارُ﴾[1]. وقيل: تَغشَى الخلق. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: ﴿الغاشية﴾ أهلُ النار يَغْشَونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى ﴿هل أتاك﴾ أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هاهنا. وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبيّ.

[٢] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾.

[٣] ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

قال ٱبن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يومَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿خاشِعة﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائلٍ ساكن خاشع. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلل ونكَّس رأسه. وخَشَع الصوتُ: خفِي؛ قال الله تعالى: ﴿وخشعتِ الأَصْواتُ لِلرحمنِ﴾[2]. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتادة وابن زيد: ﴿خاشعة﴾ أي في النار. والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ٱبن عباس. ثم قال: ﴿عامِلة ناصِبة﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا ﴿خاشعة﴾ في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملاً. ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عَمل يعمل عملاً. وذا سحاب عَمِل. قال الهذليّ[3]:

حتى شَآها كلِيلٌ مَوْهِناً عمِلٌ ... باتت طِرابا وباتَ الليلَ لم يَنَمِ

(١) آية ٥٠ سورة إبراهيم. (٢) آية ١٠٨ سورة طه.

(٣) هو ساعدة بن جؤية. وقوله «شآها» أي ساقها. والكليل: البرق الضعيف. والموهن: القطعة من الليل. وباتت طراباً: أي باتت البقر العطاش طراباً إلى السير إلى الموضع الذي فيه البرق. وبات البرق الليل أجمع لا يقر: فعبر عن البرق بأنه لم ينم، لاتصاله من أول الليل إلى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه في خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الستمائة).

﴿ناصبة﴾ أي تعِبة. يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً: إذا تعب، ونَصْباً أيضاً، وأنصبه غيره. فروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عَبَدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له. وقال سعيد عن قتادة: ﴿عاملة ناصبة﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حُفاة عراة في العَرَصات، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم. وقال الكلبيّ: يُجَرّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فَينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوَحَل، وارتقائها في صَعُود من نار، وهبوطها في حَدُور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ٱبن عباس. وقرأ ٱبن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ٱبن كثير ﴿ناصبةً﴾ بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على ﴿خاشعة﴾. ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن ﴿وجوه﴾، فلا يوقف على ﴿ خاشعة ﴾. وقيل: ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة. وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذٍ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة. قال عكرمة والسدّيّ: عملت في الدنيا بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرُّهبان أصحاب الصوامع؛ وقاله ٱبن عباس. وقد تقدّم في رواية الضحاك عنه. وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل[1]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، ـ وقرأ قول الله عز وجل ـ ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة . عاملةٌ ناصبة ﴾. قال الكسائيّ:

(١) أي شعث وسخ، يقال: أقهل الرجل، وتقهل. «النهاية لابن الأثير».

التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل مُتَقَهِّل: يابس الجلد سَيِّءُ الحال، مثل المتقحل. وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة. وأنشد:

لَعْـــــواً[1] إذا لاقيتـــــه تقهْـــــلاَ

والقَهْل: كفران الإحسان. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أثنى ثناءً قبيحاً. وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه. وأنقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري. وعن عليّ رضي الله عنه أنهم أهل حَرُورَاءَ؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحقِرون صلاتكم[2] مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة. . .» الحديث.

[٤] ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾.

أي يصيبها صِلاؤها وحرّها. ﴿حامِيَة﴾ شديدة الحرّ؛ أي قد أُوقدت وأُحْميت المدة الطويلة. ومنه حَمِي النهار (بالكسر)، وحمِي التنور حَمْياً فيهما؛ أي اشتدّ حرّه. وحكى الكسائيّ: اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوُها: بمعنى. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب ﴿تُصْلَى﴾ بضم التاء. الباقون بفتحها. وقرىء ﴿تُصَلَّى﴾ بالتشديد. وقد تقدم القول فيها في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾[3] . الماورديّ: فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْى، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعة أوجه: **أحدها** - أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حَمْيها بانطفائها. **الثاني** - أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبيّ ﷺ: «إن لكل مَلِك حِمًى، وإن حِمى الله محارمه. ومن

---

(١) اللعو: السيء الخلق. والشره الحريص.

(٢) أي تعدون صلاتكم حقيرة بالنظر إلى صلاتهم.

(٣) راجع ١٩/ ٢٧٠.

يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه». الثالث ـ أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مُماسَتها؛ كما يحمِي الأسد عَرِينه، ومثله قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقِي صَولةَ المستأسِدِ الحامِي

**الرابع ـ** أنها حامية حِمَى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدّة الانتقام. ولم يرد حِمَى جِرْم وذات؛ كما يقال: قد حمِيَ فلان: إذا أغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿تكادُ تَمَيَّزُ مِن الغيظِ﴾[1].

[٥] ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝﴾.

الآني: الذي قد انتهى حَرّه؛ من الإيناء[2]، بمعنى التأخير. ومنه «آنيتَ وآذيت»[3]. وآناه يؤنيه إيناء، أي أحره وحبسه وأبطأه. ومنه ﴿يَطُوفونَ بينَها وبينَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[4]. وفي «التفاسير» ﴿مِن عينٍ آنيةٍ﴾ أي تناهَى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت. وقال الحسن: ﴿آنيةٍ﴾ أي حرها أدرك؛ أوقِدت عليها جهنّم منذ خلقت، فدُفِعوا إليها وِرداً عِطاشاً. وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها.

[٦] ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ليس لهم﴾ أي لأهل النار. ﴿طَعامٌ إلا مِن ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضَّرِيع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضريع، لا تَقْرَبُه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سُمٌّ قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامّة المفسرين. إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شيء يَرْمِي به البحر، يسمَّى الضَّرِيعَ، من أقوات الأنعام

(١) آية ٨ سورة الملك. (٢) آنية: متناهية في شدة الحر، من أَنَى يأنِي، كرمى يرمى، وليس من (الإيناء) مصدر آني بمعنى آخر، قال الطبري في تفسير الآية: «تسقى أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنى حرها، وبلغ غايته في شدة الحر. (٣) أي في الحديث في صلاة الجمعة؛ إذ أنه قال لرجل جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس: لقد آنيت وآذيت. ومعنى «آنيت»: أخرت المجيء وأبطأت. و «آذيت» أي آذيت الناس بتخطيك. (٤) آية ٤٤ سورة الرحمن.

لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هُزْلاً. والصحيح ما قاله الجمهور: أنه نبت. قال أبو ذُؤيب[١]:

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى وعاد ضرّيعاً بانَ منه[٢]النَّحائصُ

وقال الهُذليّ[٣] وذكر إبلاً وسوء مرعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضريع فكلُّها حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ[٤]

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر مُنتن الريح، يرمي به البحر. وقال الوالبيّ عن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة، وقاله عكرمة. والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشدّ مرارة من الصبرِ، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعاً». وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿ليس لهم طعام إلا مِن ضرِيع﴾ قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حَمْلها القيح والدم، أشدّ مرارة من الصَّبرِ، فذلك طعامهم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يَضْرعون عنده ويذِلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن آكله يضرع في أن يُعْفَى منه، لكراهته وخشونته. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شُرِّبَه ذليل تلحقه ضراعة. وعن الحسن أيضاً: هو الزُّقوم. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم. وقد قال الله تعالى في موضع

---

(١) لم نعثر على هذا البيت في ديوان أبي ذؤيب.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «بان عنه النحائص». والنحائص: جمع النحوض (بفتح النون)، وهي الأتان الوحشية الحائل. وقيل: هي التي في بطنها ولد. وقيل: التي لا لبن لها.

(٣) هو قيس بن عيزارة، كما في «اللسان».

(٤) هزم الضريع: ما تكسر منه. والحدباء: الناقة التي بدت حراقفها، وعظم ظهرها. والحرود: التي لا تكاد تدر.

آخر : ﴿ فَلَيسَ له اليومَ هاهُنا حَمِيمٌ . ولا طَعامٌ إلا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[١]. وقال هنا : ﴿إلا مِن ضَريع﴾ وهو غير الغِسلِين. ووجه الجمع أن النار دَرَكات؛ فمنهم مَن طعامه الزُّقوم، ومنهم من طعامه الغِسلين، ومنهم من طعامه الضَريع، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد . قال الكلبيّ : الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى. ويجوز أن تُحمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يطوفون بينها وبين حمِيم آنٍ ﴾[٢]. القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار. قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها . القُشَيريّ : وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول: إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار ، ليعذب بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه . فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس. وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلاً ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريع له مثلاً ، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادراً على أن ينبته في حريق النار ، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً ، فلا النار تُحرِق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطْفِىء النار ؛ فقال تعالى : ﴿ الذِي جعل لكم مِن الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم مِنه توقِدون﴾[٣]. وكما قيل حين نزلت ﴿ونحشرهم يوم القِيامةِ على وجوهِهِم﴾[٤]: قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: «الذي

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة.
(٢) آية ٥٥ سورة الرحمن.
(٣) آية ٨٠ سورة يس.
(٤) آية ٩٧ سورة الإسراء.

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمْشِيهم على وجوههم». فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب. أوليس قد أخْبرَنا أنه ﴿كلما نضِجت جلودهم بدَّلْناهم جلوداً غيرها﴾(١)، وقال: ﴿سَرَابِيلُهم مِن قَطِرانٍ﴾(٢)، وقال: ﴿إنَّ لَدَيْنا أنكالاً﴾(٣) أي قُيوداً. ﴿وَجحِيماً وطعاماً ذا غُصةٍ﴾ قيل: ذا شوك. فإنما يَتلوّن عليهم العذاب بهذه الأشياء.

[٧] ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

يعني الضريع لا يسمن آكله. وكيف يَسمن من يأكل الشوك! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضَّريع، فنزلت ﴿لا يُسْمِن ولا يغني مِن جوعٍ﴾. وكَذَبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْباً، فإذا يبس لم تأكله. وقيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة. فوجدوه لا يسمن(٤) ولا يغني من جوع.

[٨] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.
[٩] ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.
[١٠] ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وجُوهٌ يَومئذٍ ناعِمةٌ﴾ أي ذات نَعْمة. وهي وجوه المؤمنين؛ نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح. ﴿لسِعيِها﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا. ﴿راضِيةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها. ومجازه: لثواب سعيها راضية. وفيها واو مضمرة. المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. والوجوه عبارة عن الأنفس. ﴿فِي جنةٍ عالِيةٍ﴾ أي مرتفعة، لأنها فوق السموات حَسْب ما تقدم. وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين. وهم فيها خالدون.

---

(١) آية ٥٦ سورة النساء. (٢) آية ٥٠ سورة إبراهيم.
(٣) آية ٢ سورة المزمل. (٤) في بعض النسخ: «لا يشبه».

[١١] ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾.

أي كلاماً ساقطاً غير مَرْضيّ. وقال: ﴿لاغية﴾، واللَّغْو والل... واللّاغية: بمعنى واحد. قال:

عـــنِ اللَّغَـــا ورَفَـــثِ التَّكلـــمِ(١)

وقال الفرّاء والأخفش: أي لا تَسمع فيها كلمة لغو. وفي المراد بها ستة أوجه: **أحدها** - يعني كذباً وبُهتاناً وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. **الثاني** - لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة. **الثالث** - أنه الشتم؛ قاله مجاهد. **الرابع** - المعصية؛ قاله الحسن. **الخامس** - لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفرّاء. وقال الكلبيّ: لا يُسمع في الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة. **السادس** - لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرّاء أيضاً. وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر. وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿لا يُسْمَع﴾ بياء غير مسمّى الفاعل. وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه. ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿لاغِية﴾ نصاً على إسناد ذلك للوجوه، أي لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

[١٢] ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾. [١٦] ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيها عين جارِية﴾ أي بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود. وقد تقدم في سورة ﴿الإنسان﴾ أن فيها عيوناً(٢). فـ ﴿ـعين﴾: بمعنى عيون. والله أعلم. ﴿فِيها سُرُرٌ مرفوعة﴾ أي عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

---

(١) قبله: ورب أسراب حجيج كظم
قائله رؤبة. ونسبه ابن بري للعجاج.
(٢) راجع ١٩/ ١٢٤، ١٠٤.

السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله. ﴿وأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي أباريق وأوانٍ. والإبريق: هو ما له عُروة وخُرطوم. والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم. وقد تقدم هذا في سورة ﴿الزخرف﴾[1] وغيرها. ﴿ونَمارِقُ﴾ أي وسائد، الواحدة نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى. قال الشاعر:

وإنا لنُجْرِي الكاس بين شُروبنا وبينَ أبي قابوسَ فَوقَ النَّمارقِ

وقال آخر:

كُهولٌ وشبّانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ على سُرُرٍ مَصفوفة ونمارقِ

وفي «الصحاح»: النُّمرق والنُّمرقة: وسادة صغيرة. وكذلك النِّمرِقة (بالكسر) لغة حكاها يعقوب. وربما سموا الطِّنْفِسة التي فوق الرحْل نُمرقة؛ عن أبي عُبيد. ﴿وزَرَابِيُّ مَبْثوثة﴾: قال أبو عُبيدة: الزرابيّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيّ: الطَّنافس التي لها خَمْل رقيق، واحدتها: زُرْبِيّة؛ وقال الكلبيّ والفرّاء. والمبثوثة: المبسوطة؛ قال قتادة. وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة. وقيل كثيرة؛ قاله الفراء. وقيل: متفرقة في المجالس؛ قاله القُتَبيّ.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة. ومنه ﴿وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابةٍ﴾[2]. وقال أبو بكر الأنباريّ: وحدّثنا أحمد بن الحسين، قال حدّثنا حسين بن عرفة، قال حدّثنا عمار بن محمد، قال صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: ﴿هلْ أتاكَ حَديثُ الغَاشِيةِ﴾، وقرأ فيها: ﴿وزَرَابِيُّ مَبْثُوثة﴾: متكئين فيها ناعمين.

[١٧] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهلِ الدارين، تعجّب الكفار من ذلك، فكذّبوا وأنكروا؛ فذكّرهُمُ الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض. ثم ذكر الإبل أولاً، لأنها كثيرة في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلة، فنبههم جل

---

(١) راجع ١٦/ ١١٣.

(٢) آية ١٦٤ سورة البقرة.

ثناؤه على عظيم من خَلقه، قد ذلله للصغير، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمْل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً من خَلقه، مسخراً لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشِك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبَّرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراريّ والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم. وقيل: لَمّا ذكَر السُّرُر المرفوعة قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع. قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما. وقيل: الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرِّد. قال الثعلبيّ: وقيل في الإبِل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعيّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: من قرأها ﴿أفلا ينظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقت﴾ بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يَبرُك فتحمل عليه الحَمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم. ومن قرأها بالتثقيل فقال: ﴿الإبِل﴾[1]، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر. وقال الماورديّ: وفي الإبل وجهان: **أحدهما** ـ وهو أظهرهما وأشهرهما: أنها الإبل من النَّعَم. **الثاني** ـ أنها السحاب. فإن كان المراد بها السحاب، فلِما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبل تجمع هذه الخِلال الأربع؛ فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم. وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ، وتخرج اللبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه، ولا يُركب ظهره، ولا يحلب

(١) في «البحر المحيط»: «قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام. الأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء. وعلي وابن عباس بشد اللام، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا إنها السحاب».

درّه. وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة[١] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلِقت. والإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت: أُبيلة وغنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

[١٨] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨﴾.

[١٩] ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾.

[٢٠] ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وإلَى السَّماءِ كيفَ رُفِعَتْ﴾ أي رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالها شيء. ﴿وإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي كيف نُصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دُحِيت مادت، فأرساها بالجبال. كما قال: ﴿وجعلنا في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِهِم﴾[٢]. ﴿وإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ﴾ أي بُسطت ومدّت. وقال أنس: صليت خلف عليّ رضي الله عنه، فقرأ ﴿كَيفَ خَلَقْتُ﴾ و ﴿رَفَعْتُ﴾ و ﴿نَصَبْتُ﴾ و ﴿سَطَحْتُ﴾، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتها. وكذلك سائرها. وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: ﴿سُطِّحَتْ﴾ بتشديد الطاء وإسكان التاء. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا الطاء. وقدّم الإبل في الذكر، ولو قدّم غيرها لجاز. قال القشيريّ: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرف الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش؛ وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره، فقد ينظر

---

(١) الكناسة: سوق الكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع، أو تصدر عنها، وهي كالمربد للبصرة.
(٢) آية ٣١ سورة الأنبياء.

في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأمِروا بالنظر في هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

[٢١] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾. [٢٢] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.
[٢٣] ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾. [٢٤] ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.
[٢٥] ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾. [٢٦] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعِظهم يا محمد وَخوِّفْهُمْ. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر﴾ أي واعظ. ﴿لست عليهم بِمصيطِرٍ﴾ أي بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نسختها آية السيف. وقرأ هارون الأعور ﴿بِمُسَيْطَرٍ﴾ (بفتح الطاء)، و ﴿المُسَيْطَرون﴾[1]. وهي لغة تميم. وفي «الصحاح»: ﴿المسيطِر والمصيطِر﴾: المسلّط على الشيء، ليشرِف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله، من السطر، لأن[2] من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطِر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿لست عليهِم بِمسيطِرٍ﴾. وسَطَرَه أي صَرَعَه. ﴿إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكفر﴾ ٱستثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير. ﴿فيعذِّبه اللَّهُ العذابَ الأكْبر﴾ وهي جهنم الدائم عذابها. وإنما قال ﴿الأكبر﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل. ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود: ﴿إلاَّ مَنْ تَوَلّى وكَفَرَ فإنه يعذبه الله﴾. وقيل: هو استثناء متصل. والمعنى: لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير. ورُوِي أن علياً أتِي برجل ٱرتد، فٱستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ ﴿إلاّ مَنْ تَوَلَّى وكَفَر﴾. وقرأ ابن عباس وقتادة ﴿ألاَ﴾ على الاستفتاح والتنبيه، كقول ٱمرىء القيس:

أَلاَ رُبَّ يــومٍ لَــكَ مِنْهُــنَّ صَــالِــحٍ[3]

---

(١) آية ٣٧ سورة الطور. وقد أورده صاحب اللسان وشرحه. (٢) كذا في نسخ الأصل وتفسير ٱبن عادل نقلاً عن القرطبي. والذي في «الصحاح»: «وأصله من السطر، لأن الكتاب مسطر...». (٣) تمامه:

ولا سيمــا يــوم بــدارة جلجــل

و ﴿مَنْ﴾ على هذا: للشرط. والجواب ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: إلا من تولى وكفر يعذبه الله. ﴿إن إلينا إيابَهُمْ﴾ أي رُجوعهم بعد الموت. يقال: آب يئوب؛ أي رجع. قال عَبيد:

وكُلّ ذي غَيْبَةٍ يَئُوبُ ... وغائب الموتِ لا يَئُوبُ

وقرأ أبو جعفر ﴿إيّابَهُمْ﴾ بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمخشري: وقرأ أبو جعفر المدنيّ ﴿إيابهم﴾ بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيْعالا: مصدر أيب، قيل من الإياب. أو أن يكون أصله إوّاباً فِعّالاً من أوّب، ثم قيل: إيواباً كدِيوان في دِوّان. ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه.